كان حبشيّ السمرة كغمامة ظلّ، قاتم اللون كغسق[826] الليل. فهل أخّرته مثل سَمْك[827] شعرة غواشي[828] الرقّ والجلد والجنس عن مقامه ذاك في مقدّمة أهل الإسلام؟ بل كان صوته النديّ العذب يلعلع[829] بنداء السماء، فيخفّ جمع المسلمين ملبّين، يلتئمون صفوفاً، كلّ صفٍّ كأنّه بنيان مرصوص، اتّحد فيه الحجر باللبن بالحصباء بالرمال بالمِلاط[830] بغيرها من مواد التشييد، فتوطّد أساساً، واشتدّ مراساً، وثَبُت دعائم، ورَسُخ قوائم، وتماسكت جدرانه، وصَلُبت أركانه، وشمخ شموخ صَرْح ممرّد[831]، رفيع الذرى والعماد. أو كأنّهم كانوا وكلّ صفٍّ من صفوفهم عقد منظوم، ممدود غير معقود، من زَبَرْجَد[832] ولازُوَرد[833]، ومن يَشْب[834] وياقوت، ومن يُسْر[835] ودُرّ، ومن لؤلؤ ومرجان إن تكن حبّاته التي يجملها سلكه قد تعدّدت جوهراً وأصلاً، وتفاوتت مظهراً وشكلاً، فإنّها قد تناسقت أحجاماً، وتساوقت نظاماً، وتواترت أنواعاً، وتآلفت شعاعاً كماء ينبوع صاف، يتنضّد حبابه، ويتوحّد انسيابه، حتّى يكون كوجه مرآة جلواء، أو يكون كمثل ألوان الطَيف، تتداخل وتتذاءب، فإذا هي غلالة ضياء. * * *